حوار المشرق والمغرب.. أم تقويض سقف التقليد ؟

كمال عبد اللطيف

تلقيت دعوة من مجلة «العربي» للمشاركة في ندوة فكرية تتناول بالبحث موضوع «حوار المشارقة والمغاربة، الوحدة في التنوع». وافترض أن خلفية الندوة تحتمل أحد أمرين على الأقل، فقد يكون دافعها في ظروفنا الراهنة، وكما يوحي بذلك ظاهر العنوان، هو بحث كيفيات تعميق أواصر القربى الثقافية، وذلك بنقد عوائقها واستحضار أوجهها الحاصلة في تاريخنا المشترك، كما قد يكون التفكير في محدودية الشعارات السياسية، وذلك بالتوقف أمام ظاهرة تقلص وتراجع إرادة دعم التواصل الثقافي والسياسي. وفي كل الأحوال، قررت دون تردد المشاركة في هذا اللقاء، الذي تصورت أنه سيدفع المشاركين في اللقاء إلى تطوير النقاش في ثنائية مشرق ـ مغرب، التي بدأ التداول الحديث في شأنها في منابر ومحافل الثقافة العربية، منذ ما يزيد عن ربع قرن .

لم اقتنع في يوم من الأيام بمبدأ المفاضلة بين منتوجات الثقافة داخل الفضاءات الفكرية ذات المرجعية النظرية المتشابهة، والإطار التاريخي الجامع، مثلما هو عليه الحال في العالم العربي، وذلك رغم علامات التميز والتمايز العارضة في التاريخ هنا وهناك في المشرق وفي المغرب وفيما بينهما. مثلما أنني لا أقبل الحديث الايجابي في المجال السياسي باستعمال المفردات الدارجة في بعض الخطابات القومية، من قبيل «الاقليم القاعدة» أو «الاقليم المركز»، مقابل الأطراف والهوامش والبواقي. فهذه المفاهيم تتخلى عن آليات التفكير بالتوافقات التاريخية والعهود الإرادية، وهو التفكير الذي يسلم بتساوي الأقطار الأطراف المعنية بموضوع تكامل العلاقات، ويتجه لرسم المواثيق التي تؤسس لقواعد التكامل والتعاون والتنسيق. ولهذا السبب اتجهت للتفكير في إعداد ورقة تعنى بأسئلة الفكر العربي اليوم، بدل الانخراط في تكريس المفاضلات المغفلة للشروط المؤسسة للثقافة، والشروط اللاحمة لسقف النظر هنا وهناك، متجنباً استدعاء مفاهيم الجغرافية المركبة بحسابات سياسية وسيكولوجية ظرفية وعارضة .

لنسلم جدلاً بوجود حساسيات في الثقافة المغربية، تميزها داخل فضاء المشهد العام للفكر العربي، ولنسلم تاريخياً بوجود أسبقية تاريخية في كثير من أجناس وأنماط المنتوج الثقافي لبعض الأقطار العربية، لكننا لن نستطيع إقناع أحد بأن الحساسيات المذكورة والأسبقيات المؤكدة، تمنح امتيازاً لروح الفكر العربي

وتمظهراته المختلفة. وإذا كان محمد عابد الجابري قد اتجه في منتصف سبعينات القرن الماضي لبلورة أطروحة تتجه لترسيخ التقابل والاختلاف بين مشرق، يهيمن فيه وعليه فكر الغزالي وابن سينا، ومغرب تمنحه العقلانية الرشدية والواقعية الخلدونية خصوصية ترفع مكانته الرمزية في تاريخ الفكر الاسلامي في عصورنا الوسطى، فقد تم في نظرنا تفنيد هذا الموقف من أقطار عربية متعددة، نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر علي أومليل، محمد أركون، فهمي جدعان الخ.. وقد عمل هؤلاء في ردودهم على إبراز مستويات التداخل والترابط ومحدودية التمايز، بحكم هيمنة نظام مرجعي فكري واحد على آليات النظر في فكرنا، وذلك رغم حصول بعض التنويعات في الأداء الفكري العام. فالتنويعات التي حصلت لم تقلب نظام النظر بحكم أن شروط القلب لم تتوفر بعد .

حاصرت الانتقادات المذكورة مسوغات الجابري البانية لمبدأ القطيعة بين المشرق والمغرب، وعمل أصحابها على ترتيب حدود التقابل المذكور، بل وساهم بعضهم في إعادة قراءة منتوج الفكر الاسلامي بمفاهيم وحدة المرجعية ووحدة النظام المعرفي، ومحدودية الاختراقات التي تحصل بصور مختلفة في مراحل مختلفة من تاريخ الفكر، دون أن يتمكن أي منها كما قلنا من كسر سقف المرجعية المنمطة لعمليات التفكير ومنتوجه في الثقافة الواحدة، بل وفي الثقافات المتعددة ذات المرجعيات المشتركة .

لم انشغل إذن بموضوع المفاضلة، ولم أهتم برصد التمايز، وقد بدا لي أن استخدام المعايير الجغرافية في رسم معالم تيارات الفكر العربي وملامحه قد لا تكون مجدية، فنحن نستطيع معاينة جوانب من القوة في الفكر في مختلف الأقطار العربية وبدون استثناء، ونحن لا نقول هذا من قبيل المجازفة والتعميم السريعين، بل إن متابعة عامة لما يجري في المشاهد الثقافية لمختلف الأقطار العربية، تؤكد ما نحن بصدده مع اختلاف في الكم تؤسسه شروط تاريخية ونظرية تتجاوز مجال الأفكار، كما تتجاوز الأفراد والأقطار، ولا تنطبق على مختلف عقود الزمن المتلاحقة .

وعندما نتجه على سبيل التمثيل للتفكير في أسئلة الفكر العربي المعاصر، سنجد أن العرب يواجهون مشاكل واحدة، بمستويات في الحضور والكثافة متقاربة، إن لم تكن متجانسة. لنأخذ كمثال على ما نحن بصدده صور العودة العنيفة إلى النزعة النصية التقليدية في التعامل مع التراث، وصور انتقال الصراع في الفكر من الجدل والسجال والرأي إلى مستوى التكفير والتهديد والتفجير، وغير ذلك من اللغات الجديدة التي أصبحت عنواناً كبيراً في كثير من الساحات العربية. ففي مختلف الأقطار العربية تنتقل اليوم نصوص وظواهر، لتحاصر شرارات الفكر النقدي وبؤر الاجتهاد وإرهاصاته الساعية إلى تركيب الفكر الأكثر

تاريخية، والأكثر قدرة على مجابهة أسئلة زماننا وأسئلة أزماتنا ومآزقنا في السياسة والثقافة والمجتمع. ومعنى هذا أن مستقبل العمل الثقافي العربي المشترك ينبغي أن يتجه صوب مزيد من الإعداد لمحاصرة مرجعيات التقليد، بهدف بناء ما يسعف بشروط انتعاش الثقافة القادرة على كسر قيود النصية الكابحة للاجتهاد، وسلوكيات العنف المستخدم لكاتم الصوت .

تسمح لنا الأمثلة السابقة بإدراك أن منطق التمايز والمفاضلة، لا يتأسس بناء على معطيات تاريخية نظرية محددة، قدر ما تمليه في الأغلب الأعم حسابات سياسية ومواقف قبلية مؤسسة على نوع من التمركز الذاتي، الموصول بدوره بسياقات فرضتها وتفرضها الأوضاع العربية المأزومة، بحكم ثقل التحديات والضغوط التي تواجهها المشاريع العربية في النهضة، وبحكم عجز أغلب الأنظمة السياسية السائدة على بناء البرامج الاصلاحية، المساعدة على التقليص من حدة الأزمات التي ازدادت تفاقماً في نهاية القرن الماضي وبدايات هذا القرن .

إن عدم قدرة العرب على إنحاز الاصلاحات التاريخية المطلوبة في عالمهم، سواء في المجال السياسي أو في المجال الثقافي العام، وعدم قدرتهم على إنجاز تواصل إيجابي مع العالم، كلها عناصر ساهمت وما تزال تساهم في مراكمة الأخطاء المعطِّلة لمشروع النهوض العربي في مختلف أبعاده .

وإذا كان بإمكاننا أن نتحدث في العالم العربي عن وجود تمايزات ظرفية أو تنويعات عرضية، في هذا المجال الثقافي العربي أو ذاك، في هذا القطر العربي أو ذاك، في هذا العمل الابداعي المخصوص أو ذاك، فإن الأمر لم يبلغ بعد عتبة التجاوز والقطيعة بين مشرق ومغرب، وبين قطر وآخر داخل المشرق أو داخل المغرب .

فنحن جميعاً لم نتمكن من فك قيود التقليد، ولم تنفتح أمامنا أبواب ودروب الإبداع على مصراعيها، ولم ينجح أي جناح من أجنحة هذا الوطن الفسيح في ترتيب إعادة فضائه السياسي، بأساليب التدبير الديمقراطي المساعدة في نظرنا في عملية تأهيل العلاقات العربية العربية، لتركيب آليات في العمل الديمقراطي الجماعي المساعدة على تجاوز الحساسيات والحسابات الصغيرة، التي تعد في نهاية التحليل محصلة دالة على عدم قدرتنا على الاستفادة من تجاربنا وتجارب الآخرين في التاريخ .

وعندما نواصل تفكيرنا في المستويات الفكرية لثنائية مغرب مشرق، لإبراز محدوديتها في الإحاطة بإشكالات تطور الفكر العربي المعاصر، نكتشف السمات العامة والمشتركة لأغلب مشاريع الفكر،

ومنظومات النظر السائدة في مختلف الأقطار العربية، كما نكتشف محدودية مشاريع المثاقفة بآليات الترجمة وقنواتها المساعدة على إنجاز تواصل فاعل وفعال، في علاقة فكرنا بالانتاج الفكري العالمي في مختلف فروع وتجليات المعرفة في العالم المعاصر، فقد انشغلت مختلف الأقطار العربية في إنشاء مؤسسات بحثية متعددة، إلا أنها لم تفكر في إنشاء شبكة قادرة على تنظيم الجهود، ووقف مسلسلات سوء التدبير، المتمثلة في التبذبر، وفي غياب الحدود الدنيا من التنسيق القادر على إنجاز المشاريع بنوع من الترتيب، الذي يصوغ الأوليات ويضع الأولويات المطابقة لحاجاتنا الراهنة اليوم وغداً. فما أكثر الجهود المعادة دون حساب ودون تجاوز للعثرات والأخطاء. فنحن في العمق أشبه ما نكون بجزر معزولة فعلاً، ومجتمع متضامن قولاً وشعارات، وضمن هذا الأفق فكرت في موضوع الحوار، معتبراً أن سؤالنا المركزي في المجال الثقافي اليوم، هو سؤال التفكير في كيفية تكسير سقف النظر السائد والمرجعية الفكرية المهيمنة في مختلف مجالات الفكر العربي ..

الشرق الاوسط